الحديث التاسع عشر

إنما الأعمال بالنيات

عن عمر بن الخَطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها، أو امرأةٍ يَنكِحها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، وأبو داود، والتِّرمذيُّ، والنَّسائيُّ، وابن ماجه، وأحمد[1].

قال ابن رجب:

[هذا الحديث تفرَّد بروايته يحيى بن سعيدٍ الأنصاريُّ عن محمَّد بن إبراهيم التَّيميِّ، عن علقمة بن وقَّاص اللَّيثيِّ، عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه.

وليس له طريقٌ يصِحُّ غير هذا الطَّريق، كذا قال عليُّ بن المدينيِّ، وغيرُه.

وقال الخطَّابيُّ: لا أعلم خلافاً بين أهل الحديث في ذلك، مع أنَّه روي من حديث أبي سعيدٍ، وغيره، وقد قيل: إنَّه روي من طرقٍ كثيرةٍ، لكن لا يَصِحُّ من ذلك شيءٌ عند الحفَّاظ. ثمَّ رواه عن الأنصاريِّ الخَلْقُ الكثيرُ، والجمُّ الغفير، فقيل: رواه عنه أكثر من مِئَتَيْ راوٍ، وقيل: رواه عنه سبعمئة راوٍ. ومن

---

(١) البخاريُّ برقم ١، ومسلمٌ برقم ١٩٠٧، وأبو داود برقم ٢٢٠١، والترمذيُّ ١٦٤٧، والنَّسائي ١/ ٥٨، وابن ماجه برقم ٤٢٢٧، وأحمد ١/ ٢٥ و٤٣.

وانظر شرح الحديث في فتح الباري، وشرح النَّووي، وفي مجموع فتاوى ابن تيميَّة، فقد كتب رسالةً كاملةً في شرحه، وانظر جامع العلوم والحكم لابن رجب.

أعيانهم الإمامُ مالك ، والثَّوريُّ ، والأوزاعيُّ ، وابن المبارك ، واللَّيث بن سعدٍ ، وحمَّاد بن زيدٍ ، وشعبة بن عُيينة ، وغيرُهم[(١)].

واتَّفق العلماء على صحَّته ، وتلقِّيه بالقبول ، وبه صدَّر البخاريُّ كتابه الصَّحيح ، وأقامه مقام الخُطبة له إشارةً منه إلى أنَّ كلَّ عملٍ لا يراد به وجه الله فهو باطلٌ ، لا ثمرة له في الدُّنيا ، ولا في الآخرة ، ولهذا قال عبد الرَّحمن ابن مهدي: لو صنفت كتاباً في الأبواب لجعلت حديث عمر بن الخطاب في الأعمال بالنِّيَّات في كلِّ باب.

وعنه أنَّه قال: من أراد أن يصنِّف كتاباً ؛ فليبدأ بحديث «الأعمال بالنِّيَّات».

وهذا الحديث أحد الأحاديث الَّتي يدور الدِّين عليها][(٢)].

وجاء في «فتح الباري»: [قال أبو عبد الله: ليس في أخبار النَّبيِّ ﷺ شيءٌ أجمع ، وأغنىٰ ، وأكثر فائدةً من هذا الحديث ، واتَّفق عبد الرَّحمن ابن مهدي ، والشَّافعيُّ ـ فيما نقله عنه البويطي ـ وأحمد بن حنبل ، وعليُّ بن المَدينيِّ ، وأبو داود[(٣)] ، والتِّرمذيُّ ، والدَّارقطنيُّ ، وحمزة الكنانيُّ على أنَّه ثلثُ الإسلام»[(٤)].

* * *

إنَّما: أداةٌ من أدوات القَصْرِ ، أكثر ما تُستعمل فيما يعلمه المخاطب.

والقَصْرُ في الحديث حقيقيٌّ ، ولا عبرة لما قاله بعضُهم[(٥)] من أنَّه إضافيٌّ؛

---

(١) إذاً فالحديث غريبٌ في أوَّله مشهورٌ في آخره ، فهو ليس متواتراً ؛ لأنَّ من شرط المتواتر أن ينقله جمعٌ عن جمعٍ في كلِّ مراحل السَّند. والحديث تفرَّد به يحيى عن محمد عن علقمة ، عن عمر.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٥٩ ـ ٦٠ ـ ٦١.

(٣) انظر كتابنا «أبو داود حياتُه وسُننه» ص ٤٤ ، فقد ذكرت هناك كلمة أبي داود في الأحاديث الأربعة الَّتي تكفي الإنسان لدينه ، وأوَّلها حديثنا هذا.

(٤) فتح الباري ١/ ١١.

(٥) كما ورد في «دليل الفالحين».

لأنَّ مفهوم النِّيَّة ممَّا يختلف فيه النَّاس ، فالنِّيَّة هي الدَّافع الَّذي يحملُ الفردَ على القيام بالعمل ، فلا قيمة للعمل إلاَّ إن كانت نِيَّتُهُ طيبةً صالحةً .

الأعمال: معروفة ، وهي عامَّةٌ للأعمال الشَّرعيَّة والمعاشيَّة .

الباء: في قوله بالنِّيَّات للسَّببيَّة. والتَّقدير: وجود الأعمال شرعاً ، واعتبارها مستقرٌّ ، أو ثابتٌ بسبب النِّيَّة ، ويصحُّ كونها للملابسة ، وكونُها للمصاحبة. وقيل: الباء للاستعانة.

النِّيَّة: مصدر الفعل (نوىٰ) وقيل: هي اسم مصدر.

ومعناها لغةً: القصد. قال البيضاويُّ: النِّيَّة عبارةٌ عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرضٍ من جلب نفعٍ ، أو دفع ضُرٍّ حالاً ، أو مآلاً. والشَّرع خصَّصها بالإرادة المتوجِّهة نحو الفعلِ ؛ لابتغاء رضا الله ، وامتثال حكمه[1].

والنِّيَّة في الحديث محمولةٌ على المعنىٰ اللُّغويِّ .

وقالوا: إنَّ النِّيَّة شرعاً: قصد الشَّيء مقترناً بفعله إلا في الصَّوم ، والزَّكاة للعسر ، وإن تراخىٰ الفعل عن القصد ؛ سُمِّي ذاك القصد عَزْماً.

وقال ابن رجب: [واعلم: أنَّ النِّيَّة في اللُّغة نوعٌ من القصد ، والإرادة ، وإن كان قد فُرِّق بين هذه الألفاظ.

والنِّيَّة في كلام العلماء تقع بمعنَيين:

أحدهما: بمعنى تمييز العبادات بعضها عن بعضٍ ، كتمييز صلاة الظُّهر من صلاة العصر. . . وهذه النِّيَّة هي التي توجد في كلام الفقهاء كثيراً.

والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعمل: هل لله وحده لا شريك له ، أم لله ، وغيره؟ وهذه النِّيَّة هي التي توجد في كلام السَّلف المُتقدِّمين ، وهي الَّتي يتكرَّر ذكرها في كلام النَّبيِّ ﷺ تارةً بلفظ النِّيَّة ، وتارةً بلفظ الإرادة ،

---

(١) انظر «فتح الباري» ١/ ١٣ .

وتارةً بلفظٍ مقاربٍ لذلك][1] وقد جاء ذكر النِّيَّة في كتاب الله تعالى بغير لفظ النِّـيَّـة من الألفاظ المُقاربة:

* فقد ورد معناها في القرآن بلفظ (الإرادة) كثيراً، مثل قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

* وورد معناها في آياتٍ أخرىٰ بلفظ الابتغاء، نحو قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢٠] وقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

ـ والجار والمجرور (بالنِّـيَّـات) لا بُدَّ من تعليقه. ويعلقونه بمحذوفٍ، وتقديره مختلفٌ، فقدَّره بعضهم: تعتبر، وقالوا: إنَّما تعتبر الأعمال بالنِّـيَّـات، أي: إنَّ الأعمال لا يُـعْتَـدُّ بها شرعاً إلا بالنِّـيَّـة.

وقـدَّره بعضُهم: تصحُّ، وقالوا: إنَّمـا تصح الأعمال بالنِّـيَّـات؛ لأنَّ الأعمالِ من غير نيَّةٍ لا قيمة لها، ولا تؤدي إلى الثَّمرة المطلوبة منها.

وقيل: تكمل الأعمال بالنِّيَّات، وقيل: تحصل، أو تستقرُّ.

هناك أمور يستحب أن ينوي الإنسان فيها التقوِّي على طاعة الله، كالأمور الَّتي يقوم بها المرء استجابةً لفطرته، وغرائزه، كالأكل، والشُّرب، ونحو ذلك. فمن نوىٰ في هذه الأمور نيَّةً حَسَنَةً كانَ له الثَّوابُ، وانقلبت هذه الأمور عباداتٍ، وبارك الله له في أعماله، ولكنَّ الشَّرع لا يوجب عليه الإتيان بالنِّـيَّة.

ومن ذلك ما ورد من الوعد بالأجر لِمَنْ يضع اللُّقمة في فم زوجته يبتغي بذلك وجه الله. قال ﷺ: «. . . وإنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٦٥ ـ ٦٦.

عليها ؛ حتَّى اللُّقمة تجعلها في في امرأتِك» . متَّفقٌ عليه[1] .

والنِّيَّة في هذه الأمور مفيدةٌ للفرد ، والأمَّة :

لأنَّ ذلك يوقظ في الفرد مراقبة الله ، وابتغاء الخير ، وينمِّي فيه روح التَّديُّن ، ويقضي فيه على الأثرة ، وحبِّ الذَّات .

ولأنَّ ذلك يجعل أعمال الأفراد مربوطةً بما يعود على الأمَّة بالخير .

ـ إنَّ النِّيَّة لَتُغَيِّر من طبيعة العمل :

فالصَّلاة خير موضوع ، وهي شيءٌ سامٍ في نظر الدِّين ، ولكن إذا كانت نيَّةُ من يأتي بها الرِّياءَ ، وخداعَ النَّاس ، وغشَّهم ؛ كانت تلك الصَّلاة شيئاً مذموماً .

والكذب خُلُقٌ ذميمٌ يهدي إلى الفجور ، ولكن إذا كانت نيَّةُ المرء إصلاحَ ذات البين ؛ كان أمراً جائزاً ، بل محموداً ، كما جاء في حديث أمِّ كلثوم ـ رضي الله عنها ـ أنَّها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذَّاب الَّذي يُصلح بين الناس فَيَنْمي خيراً ، أو يقول خيراً» . متَّفق عليه[2] . وهذا خاصٌّ فيما جاء فيه نصٌّ ، كما في حديث أمِّ كلثوم ، أمَّا المُحرَّمات ؛ فلا تجعلها النِّيَّة أمراً مباحاً ، ولا محموداً أبداً . . . إنَّ المُباحات فقط إن نوىٰ صاحبها فيها الطَّاعة كانت أمراً مستحبّاً ، كما ذكرنا .

إنَّ العبادات ، والمعاملات لا تصحُّ ، ولا تعتبر إلا بالنِّيَّة ، فمن امتنع عن الطَّعام ، والشَّراب من طلوع الفجر إلى الغروب بسبب الحَبْسِ ، أو عدم القابليَّة لا يُعتبر صائماً ؛ إن لم ينوِ الصِّيام لله تعالى .

ومن سبَح ، وغطس في البحر للتبرُّد ، أو التَّنظُّف ، ولم ينو غسل الجنابة ، أو الجمعة لا يجزئه ذلك .

---

(١) البخاريُّ برقم ٥٣٥٤ ، ومسلمٌ برقم ١٦٢٨ .

(٢) البخاريُّ برقم ٢٦٩٢ ، ومسلمٌ ٢٦٠٥ ، وانظر كلام الإمام النَّوويِّ في كتابه رياض الصَّالحين (باب بيان ما يجوز من الكذب) .

وهكذا فالنِّيَّة كما تكون ركناً في العبادات ينبغي أن تكون متعلِّقةً بمقاصد الأعمال أيضاً ، ودوافعها .

* يقول ﷺ: «وإنَّما لكلِّ امرىءٍ ما[١] نوىٰ» .

يُحاسَب النَّاسُ على نيَّاتهم ، فإن كانت نيَّة العامل خيراً ، وقصدُه وجه الله ؛ أثابه الله ، وأعطاه ، وضاعف له الأجر ، وإن كانت نيَّته شرَّاً ، وقصده الرِّياء للعباد ؛ حُرِمَ الثَّواب ، وقد يوقعه هذا الحال في الشِّرك الَّذي يحلُّه جهنَّم دار الهوان ، والعذاب ، والشَّقاء ، وساءت مصيراً .

* ويقول: «فمن[٢] كانت هجرتُه إلى الله ورسوله ، فهجرتُه إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرتُه لِدنيا يُصيبها ، أو امرأةٍ يَنكحها ؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

هذا تفصيلٌ لبعض الإجمال فيما قبله ، وتمثيلٌ على ذاك المبدأ الَّذي قرَّره الشَّطر الأول للحديث .

وقد سبق أن تحدَّثت عن الهجرة حديثاً وافياً فيما سبق من هذه الدُّروس[٣] ، وسأشير بعض الإشارات إلى الهجرة ممَّا يتَّصل بموضوع الحديث الَّذي نحن بصدد دراسته :

الهجرة (لغةً): التَّركُ . و«شرعاً»: مفارقة دار الكفر إلى دار الإسلام خوفَ الفتنة .

---

(١) قيل في إعرابها: إنَّها اسم موصول ، أو نكرةٌ موصوفةٌ ، أو حرف مصدري . فعلى القول الأول: وإنَّما لكلِّ إنسانٍ ما نواه . وعلى القول الثَّاني يكون التقدير: وإنَّما لكلِّ إنسانٍ شيءٌ نواه ، وعلى القول الثالث: وإنَّما لكلِّ إنسانٍ منويُّه .

(٢) لك في إعراب (مَنْ) قولان:
فإما أن تكون شرطيَّة ، وعندئذٍ فالفاء في قوله «فهجرته . .» رابطةٌ للجواب .
وإما أن تكون موصولةً ، وعندئذ فالفاء داخلة على الخبر لمشابهة اسم الموصول للشَّرط في العموم ، أو تضمُّنه له .

(٣) انظر الحديث الخامس من هذا الكتاب .

وهذا التَّعريف يندرج تحت قولنا: مفارقة ما يكرهه الله إلى غيره ممَّا يحبُّه الله. ووجوبها باقٍ، أمَّا الحديث «لا هجرة بعد الفتح» فمعناه: لا هجرة بعد فتح مكَّة لأنَّها أصبحت دار إسلام، وكانت هجراتٌ في تاريخ الإسلام بدءاً من عهد النُّبوة حتَّى عهدنا هذا. والهجرات التي حصلت في حياة النَّبيِّ ﷺ هي: الهجرة إلى الحبشة مرَّتين، والهجرة إلى المدينة، وهذه أعظمها بركةً، وأهمُّها في تاريخنا كلِّه. والهجرة من الحبشة إلى المدينة[١].

ومن الهجرة هجرةٌ من دار الخوف إلى دار الأمن، ومنها هجرةٌ من دار الكفر إلى دار الإسلام[٢].

ولنا أن نتساءل: لماذا اختيرت الهجرة من دون الأعمال لتكون تفصيلاً لما سبق من الإجمال؟

والجواب: أنَّها اختيرت؛ لأنَّها تجمع الأعمال كلَّها: أمرها، ونهيها، أمَّا الأمر؛ فظاهرٌ من امتثال أمر الشَّارع بالسَّفر، والاتِّجاه إلى المجتمع الإسلاميِّ؛ ليستطيع أن يحيا الحياة الإسلاميَّة، وليتعاون مع إخوانه على نشر الدِّين، وأمَّا النَّهي فظاهرٌ كذلك من امتثال نهي الشَّارع عن الإقامة في بلاد الكفر، ولو كان في هذا الامتثال تركُ الأهلِ، والدِّيار، والأموال، وظاهرٌ أيضاً من الحديث «المهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه».

ولأنَّ الهجرة من أصعب الأمور على النَّفس؛ إذ إن حبَّ البلد فطرةٌ فُطِر النَّاسُ عليها، فالإنسان يألف بلده، وفيه مكان رزقه، وموطنُ ذكرياته، وأهلُه وأصدقاؤه. وقد تعدل مفارقة الأوطان القسريَّة القتل، ولذا فقد قرنها الله تبارك وتعالىٰ به، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦] ولذلك فإنَّ النَّفي عقوبةٌ من أشدِّ العقوبات زجراً.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتب السِّيرة.

(٢) انظر ما قلنا عن الهجرة وحكمها في الكلام على الحديث الخامس من هذا الكتاب.

* وقوله ﷺ: «فمن كانت هجرتُه إلى الله[1] ورسوله» كنايةٌ عن إخلاصه في هذه الهجرة ، لا يريد بذلك إلا رضوان الله ، وامتثال أمر رسوله.

والدُّنيا مشتقَّةٌ من (الدُّنوّ) أي: القرب ، لسبقها على الآخرة ، أو لدنوِّها من الزَّوال ، وهي مؤنث أدنى. وتُطلق على كلِّ المخلوقات من الجواهر ، والأعراض الموجودة قبل الدَّار الآخرة ، كالمال ، والشَّهوة ، والنِّساء ، والبنين ، والجاه ، وقد تطلق على كلِّ جزءٍ منها.

والمراد هنا: عَرَضُها ، ومتاعها ، فالتَّعبير بها مجازٌ مرسلٌ من تسمية الشَّيء باسم محلِّه ، وذكر (المرأة) بعد (الدُّنيا) من ذكر الخاصِّ بعد العامِّ ، وقد يكون تنبيهاً على سبب الحديث[2].

---

(١) الجار والمجرور متعلِّقان بـ (هجرة) إن أعربنا (كان) تامَّةً ، أو متعلِّقان بمحذوف خبر (كان) إن أعربناها ناقصةً. ومثل هذا الإعراب يردُ في قوله ﷺ: «ومن كانت هجرته لدنيا».
والجار والمجرور في قوله: «فهجرته إلى الله ورسوله» متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ ، وكذا في قوله: «. . . إلى ما هاجر إليه».
وهناك نكتةٌ لطيفةٌ في قوله: «ومن كانت هجرته لدنيا . . . فهجرته إلى ما هاجر إليه» فقد فرَّق بين الموضعين فأتىٰ بحرف الجرِّ «إلى» مرَّة ، وأتىٰ باللام مرةً أخرىٰ ، وحكمة التغاير إفادة أنَّ مَنْ كانت هجرته لأجل تحصيل ذلك كان هو نهاية هجرته ، لا يحصل له غيره من ثواب الله.

(٢) ذكر ابن حجر في «الفتح» ١/ ١٠ حديث مهاجر أمِّ قيس ، فقال:
[وقصَّة مهاجر أمِّ قيسٍ رواها سعيد بن منصور ، قال: أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال:
من هاجر يبتغي شيئاً ، فإنَّما له ذلك ، هاجر رجل ليتزوَّج امرأةً ، يقال لها: أمُّ قيس ، فكان يقال له: مهاجر أمِّ قيس.
ورواه الطَّبرانيُّ من طريقٍ أخرىٰ عن الأعمش بلفظ: كان فينا رجلٌ خطب امرأةً يقال لها: أمُّ قيس ، فأبت أن تتزوَّجه حتى يهاجر ، فهاجر ، فتزوَّجها ، فكنَّا نسمِّيه مهاجر أمِّ قيس. وهذا إسنادٌ صحيح على شرط الشَّيخين ، ولكن ليس فيه أنَّ حديث الأعمال سيق بسبب ذلك].
قلت: وفي تصحيح ابن حجر ـ رحمه الله ـ للحديث نظرٌ؛ لأنَّه عن الأعمش ، وهو مدلِّس ، وقد عنعن ، والله أعلم.

* وقوله ﷺ: «ومن كانت هجرتُه لدنيا يصيبها ، أو امرأةٍ ينكحها ؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه».

نجد أنَّ التَّعبير قد اختلف عمَّا ورد في الجملة السَّابقة «فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى اللهِ ورسوله» ففي الجملة السَّابقة كرَّر في الجزاء ما ذكره في العمل ؛ لأنَّ في ذلك شرفاً ، وارتفاعاً ، وتبرُّكاً.

أمَّا الهجرة إلى الدُّنيا والمرأة ؛ فلم يكرِّر ما ورد في العمل لإظهار عدم الاحتفال بأمرها: (الدُّنيا ، والمرأة) والتَّنبيه على أنَّ العدول عن ذكرهما أبلغ في الزَّجر ، فكأنَّه قال: إلى ما هاجر إليه ، وهو حقيرٌ ، مهينٌ ، لا يُجدي.

إننا نجد في واقع النَّاس اليوم أعمالاً متَّحدةً في مظهرها ، مختلفةً في دوافعها ، والله سبحانه هو الَّذي يعرف دخائل النُّفوس ، وخباياها.. إنَّه سبحانه لا يخفىٰ عليه شيءٌ في الأرض ، ولا في السَّماء ، ويعلم ما تُخفيه الصُّدور. وسيجازي النَّاس على نيَّاتهم.

وقد يستطيع المرء صاحبُ النَّظرة النَّافذة أحياناً أن يفرِّق بين هذه الأعمال ، لأن الآثار قد تُلمَس في بعض الحالات ، والتَّناقض في مواقف أصحاب النِّيَّات الخسيسة قد يكشف هذه الدَّوافع على حقيقتها.. ولكنَّ ذلك أمرٌ احتماليٌّ بالنِّسبة للبشر.

إنَّ العمل الفاضل لا يكون فاضلاً عند الله بمظهره ، وصورته فقط... بل يكون فاضلاً من النَّاحية الإسلاميَّة عندما يكون الدَّافع إليه فاضلاً.

فالمظهر ، والصُّورة وعاءٌ ، والمضمون يكون في النِّيَّة والمقصد والدَّافع: «إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم ، وأجسامكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، وأعمالكم»[1].

فالإحسان إلى الفقراء أمرٌ طيِّبٌ ، وعملٌ نبيلٌ ، ولكنَّه لا يبلغ هذه الدَّرجة

---

(١) صحيح مسلم برقم ٢٥٦٣ و٢٥٦٤.

من الحسن بمظهره، وصورته؛ إن كانت نيّة الّذي قام به سيئةً، كالرَّغبة في ابتغاء ثناء النَّاس، وهذا هو الرِّياء.

ومن هنا نجد الآية الكريمة الآتية تقرِّر: أنَّ الصدقة الَّتي يدفع إليها الرِّياء لا يحصل صاحبها على شيءٍ من الثَّواب، وأنَّ هذا الرِّياء يُبطلها كما يُبطل الصَّدقةَ المنُّ، والأذىٰ، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وهكذا سائر الأعمال.

ولا ينالُ المرء إلا نتيجة نيَّته، إن كانت أمراً محموداً خيِّراً؛ نال الثَّواب، وإن كانت أمراً مذموماً شرِّيراً؛ حلَّت به العقوبة.

وقد جاءت نصوص كثيرةٌ تقرِّر هذا المعنى فمن ذلك الحديث الذي رواه أبو موسىٰ الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء: أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» متفق عليه[(١)].

ومن ذلك حديث أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«إنَّ أوَّل النَّاس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشْهِد، فأُتِيَ به، فعرَّفه نعمته، فعرفها.

قال: فما عملت فيها؟

قال: قاتلت فيك حتى استُشْهِدتُ.

قال: كذبت، ولكنَّك قاتلتَ؛ لأن يقال: جريْ، فقد قيل.

ثمَّ أُمر به، فَسُحِب على وجهه؛ حتَّى أُلقيَ في النَّار.

ورجلٌ تعلَّم العلم، وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتِي به، فعرَّفه نعمته، فعرفها.

---

(١) صحيح البخاريّ برقم ١٢٣، وصحيح مسلمٍ برقم ١٩٠٤.

قال: فما عمِلت فيها؟

قال: تعلَّمتُ العلم، وعلَّمتُه، وقرأتُ فيك القرآن.

قال: كذبتَ، ولكنَّك تعلمتَ؛ ليقال: عالمٌ، وقرأتَ القرآن؛ ليقال: هو قارئٌ، فقد قيل. ثمَّ أُمِر به، فسُحِبَ على وجهه، حتَّى ألقي في النَّار.

ورجلٌ وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأُتِي به، فعرَّفه نعمه، فعرفها.

قال: فما عملتَ فيها؟

قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنْفَقَ فيها إلاَّ أنفقتُ فيها لك.

قال: كذبتَ، ولكنَّك فعلتَ؛ ليقال: هو جوادٌ، فقد قيل. ثمَّ أُمِر به فَسُحِب على وجهه، ثمَّ أُلقي في النَّار».

رواه مسلمٌ، والترمذيُّ، والنَّسائيُّ[(١)].

فهاهم أولاء ناسٌ قاموا بأعمالٍ طيِّبةٍ من الجهاد، والبذل، والتَّعليم، ولكنَّ دوافعها غيرُ خالصةٍ لوجه الله، فلم يكن لهم من أعمالهم شيءٌ من الأجر، وكانوا أوَّل خلق الله تُسَعَّرُ بهم النَّارُ يوم القيامة، والعياذ بالله تعالى!

* * *

---

(١) مسلم برقم ١٩٠٥، والترمذيُّ برقم ٢٣٨٢، والنَّسائي ٦/ ٢٣.